الجَرّاحُ بن عَبْدِ اللهِ الحَكَمِيّ
«فاتح بَلَنجَر[1]»
وفاتح شطر إرمينية ثانية

الاستاذ محمود شيث خطاب

نسـب وأيامه الأولـى

هو الجرّاح بن عبد الله الحَكَمي نسبة الى الحَكَم بن سعد العَشيرة[2] من مَذْحِج[3] ، وكان الحَكَم أكبر أبناء سعد العشيرة وبه يُكنّى[4] ، ومَذحِج من القبائل اليمنية : من كهلان بن سبأ[5] .

والجرّاح يُكنّى : أبا عقبة ، دمشقي الاصل والمولد[6] .

ولا ذكر في المصادر المعتمدة التي بين أيدينا لأيامه الاولى : مولده، نشأته ، تعليمه ، فقد أغفلت تلك المصادر حياته الخاصة ،واقتصر ا لمؤرخون على ذكر حياته العامة في تولي المناصب الادارية والقيادية وجهاده .

ويبدو أنه لم يشغل نفسه بالعلوم السائدة في عصره كعلوم القرآن

---

(١) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الابواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٨) .

(٢) الانساب المتفقة (٤٤) .

(٣) لب الالباب في تحرير الانساب (٨٢) .

(٤) جمهرة أنساب العرب (٤٠٧) .

(٥) جمهرة انساب العرب (٤٠٧) .

(٦) الاعلام (٢/١٠٦) نقلا من : سير النبلاء ـ خ ـ المجلد الرابع ، وانظر القاموس الاسلامي (١/٥٨٨) .

خريطة أرمينية

بحر الخزر

بلاد الخزر

أذربيجان

والحديث واللغة والتاريخ ، فسكتت عنه كتب الطبقات التي تعنى بالمحدثين والعلماء والمؤرخين ، بل شغل نفسه بالاعمال الادارية والياً ، والاعمال العسكرية جندياً وقائداً ومجاهداً ، فاهتمَّ المؤرخون بأعماله العامة في الدولة الاسلامية ، ولم يهتم به غيرهم ، لانه لم يكن له أثر يُذكر في المجالات الفكرية الشائعة في أيامه .

جهـــاده

١ الفاتح :

ا ـ في سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) ولَّى يزيدُ بن عبد الملك الجرَّاحَ بن عبد الله الحَكَمي إرمينية[١] . وسبب التولية ، أن المسلمين في سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) دخلوا بلاد الخَزَر (القفقاس) من إرمينية وعليهم ثُبَيْت النَّهْراني[٢] ، فاجتمعت الخزر في جمع كثير ، وأعانهم الترك من مختلف أنواعهم ، فلقوا المسلمين في مكان يُعرَف بـ (مرْج الحجارة) . ونشب القتال بين الجانبين بشدة وعنف ، فقُتِل من المسلمين بشرٌ كثير[٣] ، واستولى الخزر على معسكرهم وغنموا جميع مافيه[٤] ، وذلك في شهر رمضان في عزّ موسم الشتاء من سنة ثلاث ومئة الهجرية[٥] .

وهكذا اجتمعت على المسلمين حشود الخزر الضخمة وبرد الشتاء في عنفوانه ، فأدّى ذلك الى هزيمتهم .

---

(١) ابن الاثير (٥/١١١) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٧) والعبر في خبر من غبر (١/١٢٦) تاريخ الموصل(١٧) ، وانظر فتوح البلدان للبلاذري (٢٨٩) والبداية والنهاية (٩ / ٢٣٠) .

(٢) في تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٦): أن قائد المسلمين كان مَعْلق بن صفّار البهراني.

(٣) في تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٦) : فاصيب من المسلمين جميعا .

(٤) ابن الاثير (٥/١١٠) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٦) .

أرمينية وأذربيجان والجزيرة

إقليم الروم

بحر خوارزم

وأقبل المنهزمون الى الشام ، وقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثُبَيْت ، فوبّخهم يزيد على الهزيمة ، فقال ثُبَيْت : « يا أمير المؤمنين! ماجبنتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ، ولقد طاعنتُ حتى انقصف رمحي ، وضاربتُ حتى انقطع سيفي، غير أن الله تبارك وتعالى يفعل ما يريد »(١) .

ولما تمّت الهزيمة على المسلمين طمع الخزر في البلاد ، فجمعوا وحشدوا ، فاستعمل يزيدُ الجرّاحَ ، وأمده بجيش كثيف ، وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الاعداء ، وقصدهم في عقر دارهم . وتسامع الخزر وحلفاؤهم بقدوم المسلمين ، فلجأوا الى مدينة (باب الابواب) . ووصل الجرّاح الى مدينة (بَرْذَعَة)(٢)فأقام بها حتى استراح هو ومن معه . وتوجه نحو الخزر ، فعبر نهر (الكُرّ)(٣) ، فسمع أن بعض مَن كان معه في جيشه من أهل الجبال (جبال القفقاس) قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجرّاح اليه ، فأمر مناديه فنادى بالناس : « إن الامير مقيمٌ ههنا عدّة أيام ، فاستكثروا من الميرة » ، فكتب ذلك الرجل الى ملك الخزر يخبره أن الجرّاح مقيم،ويشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه(٤) !

ولمّا كان الليل أمر الجرّاح بالرحيل ، فسار مُجِدّاً حتى انتهى الى مدينة (باب الابواب) ، فلم ير الخزر ، ويبدو أنهم انسحبوا بسرعة من

(١) ابن الاثير (٥/١١١) .

(٢) برذعة : مدينة من مدن ارمينية الاولى ، وانظر ماجاء عنها من تفاصيل في كتاب: معجم البلدان (٢/١١٩ ـ ١٢٢).

(٣) نهر الكُرّ : ينبع من كورة جرزان (جورجيا) من جبال (جلدير) ويمر بمدينة تفليس ، ويبلغ طوله نحو (٩٤٠ كم) ، وانظر ماجاء عن هذا النهر في : معجم البلدان (٧/٢٣٧ـ٢٣٨) .

(٤) ابن الاثير (٥/١١١).




المدينة الى منطقة حشودهم ، فدخل المسلمون المدينة ، وبثّ الجرّاح سراياه على ما يجاور المدينة ، فغنموا وعادوا في الغد .

وسار الخزر وحلفاؤهم الى المسلمين بقيادة ابن ملكهم (ابن خاقان)، فالتقوا عند نهر (الرّان)[١] ، فنشب القتال الشديد بين الجانبين ، وحرّض الجرّاح أصحابه ، فظفر المسلمون بالخَزَر وهزموهم ، فطاردهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، فقتل منهم خلق كثير وغنم المسلمون جميع مامعهم[٢]، وفتح حصن (الحُصَيْن) سلماً ونقل أهله عنه .

وسار الجرّاح بالمسلمين الى مدينة (يَرْغوا)[٣] ، فأقام عليها ستة أيام وهو مجدّ في قتال أهلها ، فطلبوا الامان ، فأمنهم ونقلهم منها .

وسار الجرّاح الى (بَلَنْجَر) ، وهو حصن مشهور من حصونهم، وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة ، شدّوا بعضها الى بعض وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها ، وتمنع المسلمين من الوصول الى الحصن ، وكانت تلك العجل أشدّ شيء على المسلمين في قتالهم[٤].

وخرج رجل من المسلمين ، فقال : « مَن يَشري الله نفسه ؟ » ، فأجابته جماعة ما بلغت عِدّتهم ثلاثين رجلا ، فكسروا جفون سيوفهم ، وشدوا على العجل ، وأجلوا الرجال عنها ، وأخذوا عجلة منها .

وجدّ الخزر بقتالهم ، ورموا من النشّاب ما كان يحجب الشمس،

(١) نهر الران ، هو نهر (ارّان) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢١٣-٢١٤) ، ومنطقة ارّان من ارمينية الاولى.

(٢) ابن الاثير (٥/١١٢) ، وانظر العبر (١/١٣٦) .

(٣) يرغوا ، لم أجد لهذه المدينة ذكرا في معجم البلدان ، ووردت في تاريخ خليفة بن خياط (١/٣٣٧) : يزعوا .

(٤) ابن الاثير (٥/١١٢)

فلم يتراجع مغاوير المسلمين حتى وصلوا الى العَجَل ، وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها ، وجذبوها ، فانحدرت وتبعها سائر العجل ، لأن بعضها كان مشدوداً الى بعض ، وانحدر الجميع الى المسلمين[١] .

والتحم القتال واشتد ، وعظم الامر على الجميع ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، فانهزم الخزر وحلفاؤهم ، واستولى المسلمون على الحصن عنوة ، وأصابوا جميع ما فيه غنائم للمسلمين،فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ، وكانت تلك المعركة في ربيع الاول[٢] من سنة أربع ومئة الهجرية[٣] .

وسار الجرّاح عن (بَلَنْجَر) بعد أن أسر أولاد صاحب (بلنجر) وأهله ، فبعث الجراح اليه وأحضره ، وردّ أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخزر وحلفاؤهم .

ونزل المسلمون على حصن (الوبندر)[٤] ، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك ، فصالحوا الجرّاح على مالٍ يؤدونه[٥] .

وسار الجرّاح الى (وَرْثان)[٦]،فأدركه الشتاء،فأقام المسلمون فيها.

وكتب الجرّاح الى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه ، وأن أهل تلك البلاد تجمّعوا وأخذوا الطرق على المسلمين ، ويسأله المدد.

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١) .
(٢) كان فتح بلنجر يوم الاحد لثلاث خلون من ربيع الاول ، انظر خليفة بن خياط (٣٣٧/١)
(٣) ابن الاثير (١١٢/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٧/١).
(٤) وبندر : لا ذكر له في معجم البلدان .
(٥) ابن الاثير (١١٢/٥).
(٦) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٨/١) ، وفي ابن الاثير (١١٣/٥) : انه عاد الى رستاق (ملئي) .





وعد يزيدُ الجرّاحَ أن يرسل له المدد من المقاتلين ، فأدركه الأجل قبل أن يرسل ما وعد به من المدد الى الجرّاح ، فأرسل هشام بن عبد الملك الى الجرّاح ، فأقرّه على عمله ، ووعده بإرسال المدد[1] .

ب ـ وفي سنة خمس ومئة الهجرية (٧٢٣ م) زحف الترك نحو إرمينية ، وزحف الجرّاح لصدّ زحف الترك ، فالتقى الجانبان بموضع يقال له : (الزَّمّ)[2] بين نهري : (الكُرّ) و (الرَّسّ) في إرمينية ، في شهر رمضان من هذه السنة ، وقد استمر القتال أياما ، فانهزم الترك[3] .

والظاهر أنّ المدد الذي وعد الخليفة هشام بارساله الى إرمينية قد وصل الى الجرّاح في الوقت المناسب،فاستأنف المسلمون استعادة ماانتقض من إرمينية ، فغزا الجرّاحُ (اللّان)[4] وهي بلاد واسعة غنيّة ، فاستعاد فتحها وفتح مدائن وحصوناً وراء (بَلَنْجَر) ، وأصاب غنائم كثيرة[5] .

ج ـ وفي سنة ست ومئة الهجرية (٧٢٤ م) غزا الجرّاح بلاد (اللّان) فصالح أهلها وأدّوا الجزية[6] بعد أن أوغل في بلاد الخزر ، وهو أول من قفل من باب اللّان في إرمينية[7] .

---

(١) ابن الاثير (١١٣/٥) .

(٢) الزم : بليدة على طريق جيحون من ترمذ وآمل ، انظر معجم البلدان (٤٠٥/٤) وليس هي المقصودة لبعدها عن ساحة القتال ، بل هي موضع بين نهري (الكـر) و (الرس) ارمينيــة .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) .

(٤) اللان : بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب مدينة (باب الابواب) وأهلها مجاورون للخزر، انظر معجم البلدان (٣١٦/٧) .

(٥) ابن الاثير (١٢٥/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٣٩/١) والبداية والنهاية (٢٣١/٩) .

(٦) ابن الاثير (١٣٤/٥) .

(٧) تاريخ خليفة بن خياط (٣٤٩/٢) .





د ــ وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) عزل هشامُ بن عبد الملك الجرّاحَ عن إرمينية وأذربيجان وولاّها مَسْلمة بن عبد الملك[١] .

ولم يذكر المؤرخون سبباً لعزل الجرّاح عن إرمينية وأذربيجان ، لأن الجرّاح لم يقصّر في عمله قائداً وادارياً ، كما أن نزاهته كانت فوق الشبهات ، ويبدو أن هشام بن عبد الملك أراد أن يستفيد من كفاية أخيه القيادية في منطقة اشتدّ فيها القتال وكثرت الخسائر ، فعزل الجرّاح واستعمل أخاه .

٣ ــ الشهيد :

ا ــ في سنة احدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) استعمل هشام بن عبد الملك الجرّاح على إرمينية وأذربيجان ثانية ، وعزل أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك[٢] .

ودخل الجرّاح بلاد الخَزَر من ناحية (تَفْلِيس) ، واستعاد فتح مدينة من مدن الخَزَر هي مدينة (البيضاء)[٣] ثم انصرف سالما[٤] .

وجمعت الخزر جموعاً كثيرة بقيادة ابن خاقان ، فدخلوا إرمينية ، ثم سار ابن خاقان ، فحاصَر (أرْدَبيل)[٥] .

ب ــ وفي سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٥ م) ، زحف الجرّاح

---

(١) ابن الاثير (١٣٧/٥) .

(٢) ابن الاثير (١٥٨/٥) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٢٩٩/٣) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٣/٢).

(٣) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٣٣٥) .

(٤) ابن الاثير (١٥٨/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٤/٢) .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٤/٢ ــ ٣٥٥) .





من (بَرْذَعة)(١) . وكان الخزر والترك قد حشدوا جموعهم من ناحية (اللان) . وعسكر الجرّاح ومَن معه بمرج (أردبيل) ، وقاتل جموعَ الخزر والترك أشدَّ قتال رآه الناس ، فصبر الفريقان صبراً جميلاً(٢) .

وتكاثر الخزر والترك على المسلمين ، فاستشهد الجرّاح لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية ، وغلبت الخزر على (أذربيجان) وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا المدينة (المَوْصل) ، وعظم الخطب على المسلمين(٣) وتكبّدوا خسائر فادحة بالارواح والاموال .

الإنســـان

١ ــ لما بلغ هشاماً خبر الجرّاح،دعا سعيداً الحَرَشيّ(٤) فقال له: « بلغني أن الجرّاح قد انحاز عن المشركين !! » ، فقال الحَرَشيّ : « كلا يا أمير المؤمنين ! الجرّاح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قُتِلَ ! » ، ولا عجب ، اذ كان الجرّاح خيِّراً فاضلاً من عمّال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه(٥) .

٢ ــ وبرز الجرّاح لأول مرة سنة سبع وثمانين الهجرية ، إذ كان على (البصرة) خليفة للحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان على العراق والمشرق كلّه(٦) .

(١) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٥) .
(٢) ابن الاثير (٥/١٥٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٦) .
(٣) ابن الاثير (٥/١٥٩)
(٤) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي.
(٥) ابن الاثير (٥/١٥٩)
(٦) الطبري (٦/٤٣٣) وابن الاثير (٤/٥٣٠).





ولايمكن أن يولّى الجرّاح مدينة البصرة ، التي كانت والكوفة في حينه أعظم مدن العراق وأوسعها وأهمها ، وكانت القاعدة الرئيسة هي والكوفة لفتوح المشرق الاسلامي ، إلا اذا كان موضع ثقة الحجّاج بخاصة والدولة بعامة ، وذا كفاية ادارية عالية .

وفي سنة تسعين الهجرية ، أصبح الجرّاح عامل البصرة للحجّاج بن يوسف الثقفي[1] ، وهكذا تقدم في سلك المناصب الادارية ، فكان قبل سنة (وكيلا) ، فأصبح بعد سنة (أصيلاً) .

واستمرّ الجراح في منصبه عاملاً على البصرة حتى سنة أربع وتسعين الهجرية[2] .

٣ ـ وفي سنة ثمان وتسعين الهجرية تولّى يزيد بن المهلّب بن أبي صُفْرة خُراسان لسليمان بن عبد الملك بن مروان . فلمّا سار يزيد الى خُراسان استخلف على مدينة (واسِط) ـ وكانت يومئذ عاصمة العراق ـ الجرّاح[3] ، وهذا دليل على كفايته المتميزة في الادارة وثقة يزيد بن المهلّب به بعد الحجّاج بن يوسف الثقفي .

وفي سنة تسع وتسعين الهجرية أصبح الجرّاح عاملا على خُراسان لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه[4] ، وليس من السهل الحصول على ثقة عمر بن عبد العزيز ، إلا اذا كان مستحقاً لهذه الثقة ديناً وكفاية .

---

(١) الطبري (٦/٤٤٧) وابن الاثير (٤/٥٤٨)
(٢) الطبري (٦/٤٩١) .
(٣) الطبري (٦/٥٢٦) وابن الاثير (٥/٣٥) .
(٤) الطبري (٦/٥٥٤) وابن الاثير (٥/٤٤).

وأقرّ عمر بن عبد العزيز الجرّاح عى خُراسان سنة مئة الهجرية[١] أيضاً في أيام القبض على يزيد بن المهلّب وحبسه [٢]، وهي أيام عصيبة بالنسبة للدولة، لأن يزيد بن المهلّب من رجالات العرب وقادتهم البارزين، ولأنه من قبيلة الأزد التي تدافع عنه حتى الموت، ولأن له شعبية طاغية في مختلف القبائل العربية الاخرى وغير العربية أيضاً وبخاصة في خُراسان بالذات.

ولكن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عاد وعزل الجرّاح في هذه السنة عن خراسان وولاها عبد الرحمن بن نُعَيْم القُشَيْري[٣]، وكان عزل الجرّاح في شهر رمضان من هذه السنة، فكانت ولايته بخراسان سنة وخمسة أشهر: قدمها سنة تسع وتسعين الهجرية، وخرج منها لأيام بقيت من شهر رمضان سنة مئة الهجرية[٤].

وكان سبب عزل الجرّاح، أن يزيد بن المهلّب لما عُزل عن خُراسان، أرسل عامل العراق عاملاً على (جُرجان)[٥]، فأخذه جَهْمُ بن زَحْر الجُعْفي[٦]، وكان على جُرجان عاملا ليزيد بن المهلّب، وحبسه وقيّده وحبس رهطاً قدموا معه. وخرج جَهْم الى الجرّاح بخراسان، فأطلق أهل جُرجان عاملَهم، فقال الجرّاح لجَهْم: «لولا أنك ابن عمّي لم أسوّغك هذا»، فقال جَهْم: «ولولا أنك ابن عمّي لم آتِك».

(١) الطبري (٦/٥٢٧).
(٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٦-٥٥٨).
(٣) هو عبد الرحمن بن نعيم الغامدي الازدي. انظر تفاصيل نسبه في: جمهرة أنساب العرب (٣٧٨).
(٤) الطبري (٦/٥٥٨) وانظر ابن الاثير (٥/٥٠).
(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان، وهي من خراسان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٧٥ - ٧٩).
(٦) جهم بن زحر بن قيس: قاتل قتيبة بن مسلم الباهلي، انظر تفاصيل نسبه في جمهرة أنساب العرب (٤٠٩).

وكان جَهْم سِلْفَ الجرّاح من قبل ابنتي الحُصَين بن الحارث، وأما كونه ابن عمه : فلأن الحكم جدّ الجرّاح والجُعْفي جدّ جَهْم هما ابنا سعد العشيرة[١] .

وقال الجرّاح لجهم : « خالفتَ إمامك ، فاغزُ لعلّك تظفر فيصلح أمرك عنده » ، فوجّهه الى (الخُتّل)[٢] ، فغنم منهم ورجع .

وأوفد الجرّاح وفداً الى عمر بن عبد العزيز مؤلّفاً من رجلين من العرب ورجل من الموالي ، فتكلّم العربيان والمولى ساكت ، فقال عمر : « ما أنت من الوفد ؟؟ » قال : « بلى ! » ، فقال : «فما يمنعك من الكلام؟» «ماأنت من الوفد ؟؟» قال: «بلى!» ، فقال : « فما يمنعك من الكلام ؟ » ومثلهم قد أسلموا من الذمّة يؤخذون بالخَراج ، فأميرنا عصبيّ جافٍ ، يقوم على منبرنا فيقول : أتيتكم حَفِيّاً[٣] وأنا اليوم اليوم عصبي ، والله لرجل من قومي أحب إلي من مئة من غيرهم[٤] . وهو بَعْدُ سيف من سيوف الحجّاج ، قد عمل بالظلم والعدوان » . قال عمر : « اذن بمثلك يوفد » .

وكتب عمر بن العزيز الى الجرّاح : « انظر من صلّى قِبلك الى القِبلة فضع عنه الجِزيَة » ، فسارع الناس الى الاسلام . فقيل للجرّاح: إن الناس قد سارعوا الى الاسلام نفوراً من الجزية ، فامتحنهم بالختان،

---

(١) انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٤٠٨-٤٠٩) .

(٢) (الختل) : كورة واسعة كثيرة المدن فيما وراء النهر (نهر جيحون) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٠١) .

(٣) الحفيّ : اللطيف الرقيق ، وفي التنزيل التنزيل العزيز (انه كان بي حفيّا) .

(٤) يريد : رجل من العرب احب اليه من مئة غير العرب.

فكتب الجرّاح بذلك الى عمر ، فأجابه عمر : « إن الله بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتنا » .

وقال عمر : « إيتوني رجلا صدوقاً أسأله عن خراسان » ، فقيل له : « عليك بأبي مِجْلَز ، فكتب الى الجرّاح : أن « أقبِل واحمِل أبا مِجْلَز وخلّف على حرب خُراسان عبد الرحمن بن نُعَيْم العامِري » .

وخطب الجرّاح قبل رحيله فقال : « يا أهل خُراسان ! جئتكم في ثيابي هذه التي عليّ ، وعلى فرسي ، لم أُصِب من مالكم إلا حلية سيفي » ، ولم يكن عنده إلاّ فرس وبغلة !

وسار عن خُراسانَ ، فلمّا قَدِم على عمر قال : « متى خرجتَ ؟ » قال « في شهر رمضان » ، قال : « صدقَ من وصفك بالجفاء ! هلاّ أقمتَ حتى تفطر ثم تخرج ! » .

وكان الجرّاح قد كتب الى عمر : « إني قدمت خُراسان ، فوجدت قوماً قد أبطرتْهم الفِتنةُ ، فأحبّ الامور عليهم أن يعودوا ليمنعوا حقّ الله عليهم ، فليس يكفّهم إلا السيف والسّوط ، فكرهتُ الإقدامَ على ذلك إلا بإذنك » ، فكتب اليه عمر : « يا ابن أم الجرّاح ! أنت أحرص على الفتنة منهم ! لا تضربنّ مؤمناً ولا مُعاهِداً سوطاً إلا في الحق ، واحذر القصاص ، فإنّك صائر الى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتقرأ كتاباً : (لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها)[١] ... » .

وقال عمر لأبي مِجْلَز : « أخبرني عن عبد الرحمن بن عبد الله ! » ، قال : « يكافىء الأكفاء ، ويعادي الاعداء ، وهو أمير يفعل ما يشاء ، ويُقدِم

(١) الآية الكريمة من سورة الكهف (١٨ : ٤٩) .



إن وجَدَ من يساعده » ، قال : « فعبد الرحمن بن نُعَيم ؟ » ، قال : « يحبّ العافية والتأنّي ، وهو أحبُّ إليّ » ؛ فولاّه الحرب والصلاة وولّى عبد الرحمن القُشَيْري الخراجَ ، وكتب الى أهل خراسان : « إنّي استعملت عبد الرحمن على حربكم وعبدالرحمن بن عبدالله[1] على خَراجِكم » ، وكتب إليهما يأمرهما بالمعروف والإحسان[2] .

ومن الواضح أن الجرّاح كان لاغبار على تديّنه ونزاهته واستقامته، ولكنّ اجتهاده في تطبيق الاسلام يختلف عن اجتهاد عمر بن عبد العزيز، فالاول يرى أن الناس قد غيّروا مابأنفسهم فلا يستقيمون الاّ بالشدّة والعقاب ، والثاني يرى تطبيق تعاليم الاسلام نصّاً وروحاً ، فلا يعاقب المرء إلا بذنب ثبت عليه ، فاختلافهما في أسلوب تطبيق المبادىء لافي المبادىء.

إن عزل الجرّاح كان لاختلافه في الاجتهاد عن الخليفة الصالح الورع ، ولم يكن عن تقصير أو انحراف أو ريبة.

٥ ــ وتولّى الجرّاح إرمينية وأذربيجان مرتين : الاولى من سنة أربع ومئة الهجرية (٧٢٢ م) الى سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) ، والثانية من سنة احدى عشرة ومئة الهجرية الى أن استشهد على أرض إرمينية سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، فسقط مضرّجاً بدمائه ولم يسقط من يده السيف .

وهكذا قضى الجرّاح زهرة حياته ادارياً وقائداً في خدمة الدولة

(١) عبد الرحمن بن عبد الله القشيري : احد بني الاعور بن تشيّر، انظر الطبري (٦/٥٦١)

(٢) ابن الاثير (٥/٥٠ـ٥٢) ، وانظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٥٨ـ٥٦٢) وانظر فتوح البلدان (٦٠٠) .

الاسلامية ، وأعطى من نفسه للمصلحة العامة كل شيء ، ولم يأخذ لنفسه منهـا شيئا •

٦ ــ وكانت له في إرمينية آثار ادارية لها صلة بالقضايا العسكرية ، منها كتابه في الصلح لأهل تفليس ، وهذا نصّه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • هذا كتاب من الجرّاح بن عبد الله لأهل تفليس من رستاق (مَنْجَلِيس)[١] من كورة (جُرْزان)[٢] ، أنه أتوني بكتاب أمان لهم من حبيب بن مَسْلَمة[٣] على الإقرار بصَغار الجزية، وأنه صالحهم على أرضين لهم وكروم وأرحاء يقال لها (أوارى) و (سابينا) من رستاق منجليس،وعن طعام وديدونا من رستاق (مُحْويط) من كورة جرزان ، على أن يؤدوا عن هذه الأرحاء والكروم في كلّ سنة مئة درهم بلا ثانية ، فأنفذت لهم أمانهم وصلحهم وأمرت ألاّ يراد عليهم ، فمن قرىء عليه كتابي ، فلا يتعدّ فيهم ذلك ان شاء الله »•

٧ ــ ولما نزل الجرّاح مدينة (بَرْذعة) أيام ولايته على إرمينية،رُفع إليه اختلاف مكاييلها وموازينها ، فأقامها على العدل والوفاء ، واتّخذ مكيالاً يُدعى الجَرّاحيّ ، فأهلها يتعاملون به[٤] •

وهذه اللمحة من اهتمامه في القضايا الادارية ، التي أوردها المؤرخون

---

(١) منجليس : الرستاق الذي عاصمته مدينة تفليس •

(٢) جرزان : اسم جامع لناحية بإرمينية ، قصبتها تفليس ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٨٣-٨٤) •

(٣) حبيب بن سلمة الفهري : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المشرق الاسلامي•

(٤) فتوح البلدان (٢٨٩) •

مثالاً على اهتماماته الادارية الاخرى ، تدلّ على مبلغ حرصه على شؤون رعيته وسهره على مصالحها .

٨ ـ ومما يدلّ على شهامة الجرّاح ومروءته ، أن مَسْلَمة بن عبد الملك حَلَف أن يبيع ذرّية آل المهلب بعد انتصاره عليهم ومقتل يزيد بن المهلب واخوته وأولاده[1] . فقال الجرّاح : « فأنا أشتريهم منك لأبرّ يمينك » ، فاشتراهم بمئة ألف ، فلم يأخذ مسلمة منه الثمن ، وخلّى الجرّاح سبيلهم جميعاً[2] .

وعهدنا بأكثر الناس ، مع المنتصر على المهزوم ، ومع أصحاب السلطان على الذين زال سلطانهم ، ومع القوي على الضعيف ، ومع الغني على الفقير ، ومع الحي على الميت ، إلاّ أصحاب المروءات الرفيعة ، وما أقلهم في كل زمان ومكان ، فهؤلاء يكونون مع (الحق) لا مع المصلحة الشخصية .

ولم يكن بمقدور كل أحد أن يتقدم على شراء ذريّة قائد تخلّى عنه الحظ وأصبح في عِداد الاموات ، وهذا دليل على قوّة شخصية الجرّاح ومبلغ ثقة مَسلمة به ، بالاضافة الى جوده وكرمه ومروءته .

فلا عجب أن يرثيه الشعراء ، ويرثيه الخليفة هشام بن عبد الملك[3] ، ويجزع لموته المسلمون .

وكان له عقب بوادي (إشّ)[4] .

(١) انظر تفاصيل فتنة يزيد بن المهلب في الطبري (٥٧٨/٦ ـ ٦٠٤) وابن الاثير (٥٧/٥ ـ ٨٩) .

(٢) الطبري (٦٠٢/٦) وابن الاثير (٨٦/٥) .

(٣) انظر ابن الاثير (١٦٨/٥) .

(٤) إش : من قرى خوارزم ، انظر معجم البلدان (٢٥٧/١) ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٤٠٨) عن عقبه وتفاصيل نسبه .

القـــــائد

في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١ م) ، كانت الحرب دائرة بين ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث في العراق وبين الحجّاج بن يوسف الثقفي عامل الدولة على العراقَين[1] ، واستمرت الحرب بين الجانبين مئة يوم وثلاثة أيام . وكانت أشد كتائب ابن الاشعث قتالاً واستبسالاً هي كتيبة القرّاء المؤلفة من علماء المسلمين وقادة فكرهم : يحمل عليهم رجال الحجّاج فلا يبرحون ، وكانوا قد عرفوا بثباتهم البطولي • وخرجت كتيبة القرّاء ذات يوم من أيام القتـــال كما كانوا يخرجون ، وعبّأ الحجّـــاج صفوفه ، وعبّأ ابن الأشعث أصحابه . وعبّأ الحجّاج لكتيبة القرّاء ثلاث كتائب ، وبعث عليها الجرّاح ؛ فأقبلوا نحوهم فحملوا على القرّاء حملات: كل كتيبة تحمل حملة ، فلم يبرحوا وصبروا[2] •

وكانت ثورة ابن الاشعث تهدّد مصير الدولة بأفدح الاخطار ، وكان القرّاء صلب رجال ابن الاشعث وعمودهم الفقري ؛ لثقـــة الناس بهم ؛ ولأنهم كانوا يستقتلون في الحرب ويطلبون الشهادة أو النصر ويضربون أروع الامثال في الثبات لأصحاب ابن الاشعث وكان القضاء على مقاومة كتيبة القرّاء قضاءً مبرماً على ثورة ابن الاشعث . فتولية الحَجاج للجراح على كتائب مقاومة كتيـبة القرّاء ومصاولتها ، دليل على أن الحجّاج يثق بكفاية الجرّاح القيادية وشجاعته وإقدامه وأنه مسعر حرب حقا •

وفي هذه الثورة في أيام الحرب ، خرج عبد الله بن رِزام الحارثي ؛ فطلب المبارزة ، فخرج اليه رجل من عسكر الحجّاج ، فقتله • وفعل ذلك

(١) انظر التفاصيل في ابن الاثير (٤/٤٦١ـ٤٨٠) •
(٢) الطبري (٦/٣٥٠) وابن الاثير (٤/٤٧٢) •

ثلاثة أيام ، يقتل كل من يبارزه من رجال الحجّاج ، وفي اليوم الرابع خرج ، فقال أصحاب الحجّاج : جاء لا جاء الله به ! وطلب الحارثي المبارزة ، فقال الحجّاج للجرّاح : (اخرج إليه) . وخرج الجرّاح ، فقال له الحارثيّ وكان له صديقا : « ويحك ياجرّاح ! ما أخرجك ! » ، فقال : « ابتليت بك » . قال : « هل لك في خير ؟ » ، قال الجرّاح : « ما هو ؟ » ، قال : « أنهزم لك وترجع الى الحجّاج وقد أحسنتَ عنده وحمدك ، وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حبّاً لسلامتك ، فإني لا أُحبُّ قتل مثلك من قومي » ، فقال الجرّاح : « افعلْ » .

وحمل الجرّاح على الحارثي ، فاستطرد له الحارثي ، وحمل عليه الجرّاح بجدٍّ يريد قتله ، فصاح للحارثي غلامه ، وكان ناحية معه ماء ليشربه ، وقال له : « ياسيّدي ! إنَّ الرجل يريد قتلك » ، فعطف عليه الحارثي وضربه بعمود على رأسه فصرعه ، وقال له : « ياجرّاح ! بئس ماجزيتني ! أردتُ بك العافية وأردت قتلي ! انطلق ، فقد تركتك للقرابة والعشيرة [١] .

ومهما تكن نتيجة المبارزة ، فإن مجرد اختيار الحجّاج للجرّاح ليتولى مبارزة بطل من الابطال انتصر على أقرانه ثلاثة أيام متوالية ، يدلّ على أن الجرّاح كان بين جيش الحجّاج بطلاً متميّزاً لامعا ، خاصة وأن انتصار مبارز على قرينه ، يؤثّر في معنويات أصحاب المنتصر فيرفعها عاليا ، ويؤثّر في معنويات أعداء أصحابه فيرديها الى الحضيض ، والنصر دائماً لذوي المعنويات العالية ، والهزيمة دائماً لذوي المعنويات المنهارة .

---

(١) ابن الاثير (٤/٤٨٠) .

كما أن إيثار الحارثي للجرّاح بالنصر ، واستئثاره بالهزيمة طوعاً،في مثل تلك الظروف الحرجة،يدل على مكانة الجرّاح السامية ليس بين أصحابه فحسب ، بل بين أعدائه أيضا ، ولايكون هذا التنازل الطوعي إلا لشخصية قوية نافذة تملأ الأعين قدراً وجلالا .

وكان الجرّاح يوصَم بالجفاء ، أي انه صاحب ضبط شديد ، يسيطر على رجاله سيطرة قوية ، ومزيّة الضبط المتين احدى مزايا القائد الجيّد.

وكان يتميّز بالحرص الشديد في محاولة الحصول على المعلومات المفصّلة عن عدوّه ، وقد استطاع أن يكتشف أن بعض من كان معه في جيشه من أهل جبال القفقاس قد كاتب ملك الخزر يخبره أنّ المسلمين قد ساروا اليه ، فتظاهر الجرّاح بالبقاء في (بَرْذَعَة) ، فكتب ذلك العَين الى ملك الخزر يخبره أن المسلمين مقيمون ، وحينذاك بادر الجرّاح بالمسير ، فرحل مسرعاً الى هدفه(١) .

والقائد الحريص على اقتناص المعلومات التفصيلية عن عدوه ، قائد يعمل في النور لا في الظلام ، لأن عملياته تكون على هدى وبصيرة ، فيتحرك وعيناه مفتوحتان ، مما ييسّر له احراز النصر .

وقد أدّى تظهر الجرّاح بالبقاء في (بَرْذَعَة) وقتاً طويلا ، ثم رحيله السريع عنها الى هدفه ، مباغتة للعدو في الزمان ، لأن الجرّاح وصل الى هدفه في وقت لايتوقعه ذلك العدو ، والمباغتة كما هو معروف أهم مبادىء الحرب على الاطلاق.

وحين فتح الجرّاح مدينة (بَلَنْجَر) أسر أولاد صاحبها وغنم أمواله

(١) ابن الاثير (٥/١١١) .

وسيطر على حصنه ، ولكنه استدعى اليه صاحب (بلنجر) وردَّ أمواله وأهله وحصنه اليـه وجعله عينـاً للمسلمين يخبرهم بما يفعله الخـزر وحلفاؤهم[1] .

وهذا دليل آخر على حرص الجرّاح الشديد في محاولاته للحصول على المعلومات المفصَّلة الدقيقة عن عدوه .

وكان الجرّاح من أولئك القادة الذين يُصرون على إحراز النصر مهما طالت المدة واشتدَّت وطأة القتال وكثرت الخسائر ، ولعلَّ معركة (بلنجر) خير دليل على هذا الاصرار .

فقد كان نشّاب العدو يحجب الشمس ، وكان حصن المدينة منيعاً، والتحم القتال بشدة حتى بلغت القلوب الحناجر ؛ دون أن يتخلّى الجرّاح عن فتح (بَلَنْجر)[2] .

ومزيّة الحرص الشديد على إحراز النصر بأي ثمن ، من مزايا القائد المتميِّـز .

ولم يُنكَب جيش يقوده الجرّاح في غير ميـدان القتـال سواء كان ذلك في مسير الاقتراب أو في المعسكرات ، مما يدل على أنه كان يتّخذ التدابير الامنية كافة لحماية جيشه بالمقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة، بالاضافة الى أنه كان يتحرك وهو مفتوح العينين في النور، لأنّه يحصل على المعلومات المفصّلة الدقيقة عن العدو ، ويحول بين العدو وبين الحصول على المعلومات المفصّلة عن قواته .

(١) ابن الاثير (١١٢/٥) .
(٢) ابن الاثير (١١٢/٥) .



وكما كان يهيّىء التدابير الامنية كافة لقواته التي يقودها،كان يهيّىء التدابير الامنية كافة لنفسه ، وقد رُئِيَ قد ظاهَرَ بين درعين ، فقيل له في ذلك ، فقال : « لستُ أقي بَدَني وإنما أقي صبري »[1] ، يريد : انه يقي معنوياته بهذين الدرعين.

ومن المعلوم أن الذي يتخذ التدابير الامنية لنفسه وقواته ، يرفع معنوياته ومعنوياتهم مادياً ومعنوياً ، والأمن مبدأ من أهم مبادىء الحرب .

لقد كان قائداً من قادة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي كتب إليه مرة : « إنه بلغني أن رسول الله ﷺ ، كان اذا بعث جيشاً أو سَرِيّة قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ، تقاتلون مَنْ كفر بالله : لا تَغُلّوا[2] ، ولا تَغْدِروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً) ، فاذا بعثتَ جيشاً أو سريّة ، فمُرْهم بذلك[3]» . وكان أعرفَ بالله من أن ينهزم[4]، كما وصفه أحد قادة الفتح الاسلامي[5] للخليفة هِشام بن عبد الملك بن مروان .

وأخيراً ضحّى الجرّاح بروحه من أجل عقيدته ، ولم يضحِّ بعقيدته من أجل روحه ، فضرّج بدمه الطاهر ثرى إرمينية ، كما ضرّج ثراها قبله وفي أيامه ومن بعده عدد كثير من قادة الفتح الاسلامي وجنوده.

لقد كان قائدا يثق به رؤساؤه ورجاله ، شجاعاً مقداما ، ذا شخصية قويّة نافذة ، يتحلّى بالضبط المتين ، ويؤدي واجبه كاملاً ويفضّله على

---

(١) العقد الفريد(١/١٧٨) . وعيون الاخبار (١/١٧٨) .
(٢) غلّ فلان غلولا : خان في المغنم وغيره .
(٣) العقد الفريد (١/١٢٨) .
(٤) ابن الاثير (٥/١٥٩) .
(٥) هو : سعيد بن عمرو الحرَشي ، اقرا سيرته في : قادة فتح المشرق الاسلامي.

العلاقات الشخصية كالقربى والصّداقة ، يأمر بالجهاد ويحث عليه ويحرّض رجاله على القتال ، حريصاً على الحصول على المعلومات الدقيقة عن عدوّه، يبذل قصارى جهده لإحراز النصر ، يطبّق مبدأ المباغتة ، ومبدأ الامن في عملياته العسكرية .

وكان فوق ذلك قائداً عقائدياً ، يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله ، يطلب الشهادة ويحرص على الموت حرص غيره على الحياة .

لقد كان الجرّاح قائداً متميّزاً .

الجـــــرّاح في التاريخ

يذكر التاريخ للجرّاح ، أنه وطّــد أركان الامن في (خُراسان) والعراق وإرمينية . ويذكر أنه استعاد فتح شطر خراسان وشطر إرمينية وفتح فتحاً جديدا .

ويذكر له ، أنه نشر العربية لغة والاسلام ديناً في أرجاء شاسعة تمتد من خراسان الى ماوراء نهر جيحون الى إرمينية .

ويذكر له أنه كان ادارياً حازماً وقائداً متميّزاً .

ويذكر أنه كان مجاهداً صادقاً ، يسعى الى الشهادة قبل أن تسعى الشهادة إليه .

رضي الله عن القائد الفاتح ، الإداري الحازم ، الشّــهيد البطل ، الجرّاح بن عبد الله الحَكَمِيّ .

بغـداد : محمود شيث خطاب

الجزء الرابع　　　المجلد الخامس والخمسون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »



ذو القعدة ١٤٠٠ هـ
تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٠ م

فهرس الجزء الرابع من المجلد الخامس والخمسين

التعـريف والنقـــد

آراء وأنبـــــاء